

تأثير الأدب العربي في شعر إقبال

د/خليل عبد الرحمن راز
السوحة - قطر

تقسم مصادر فكر إقبال إلى قسمين رئيسيين : مصادر شرقية ، ومصادر غربية ، وتشتمل أغلب المصادر الشرقية على ما سجل ، وألف في أربع لغات شرقية من تراث علمي وديني ، ومن أدب وحكمة ، وهي أردية ، وفارسية ، وعربية ، وهندية "هندوسية" ، وأخص بالذكر هنا مدى عمق تأثير إقبال في شاعريته الحيوية ، وعبقريته الفذة بما توارثته اللغة العربية من آداب ، وحكمة على مر آلاف السنين ، لقد تأثر إقبال في فكره وشعره بكل ماجرى على لسان رسولنا العربي الكريم ﷺ ، ونزل عليه من آيات الذكر الحكيم ، وجوامع الكلم ، ولآلي الحكم ، وهذه حقيقة واضحة بديهية عند كل شخص ، له معرفة ودراسة ، حول شعر إقبال ، وفكره وشخصيته .

ومن جانب آخر ، هناك حقيقة يعرفها ، ويتطرق إليها قليل من قراء شعر إقبال ، ودارسي أفكاره ، وهي أنه كان عارفاً خبيراً باللغة العربية ، وآدابها وفلسفتها ، وقد حصل على درجة الامتياز في مادة اللغة العربية ضمن شهادة التخرج من "جامعة البنجاب" ، كما أنه ظل مدرساً للغة العربية في "جامعة لندن" طوال ستة أشهر مكان أستاذه "آرنولد" ، حين تغيب آرنولد عن التدريس لإجازته بتلك الفترة ، وقد تدارس إقبال الشعر الجاهلي والكلاسيكي العربي الإسلامي على ما يتضح من خلال دراسة شعره وفكره وفنه ضمن دواوينه ، ومجموعات رسائله الشخصية ، وكتاباته النثرية المتنوعة ، وقد أثار إقبال ، وألح إلى أبيات العديد من

الشعراء العرب الجاهليين والإسلاميين ، ومنهم عنزة بن شداد ، وزهير ابن أبي سلمى ، وأمرؤ القيس ، وطرفة بن العبد ، وعمرو بن كلثوم ، وأبو الطيب المتنبي ، وأبو العلاء المعري ، وأبو تمام ، وابن زيدون الأندلسي ، والبوصيري ، وابن المثنى ، وأبو العتاهية وغيرهم .

وعلى سبيل المثال : فإن إقبال يعلق على الشعر العربي الأصيل بالجملة ضمن مذكرة له بالإنجليزية تحت عنوان : "انطباعات شاردة" (STRAY REFLECTIONS) يمدح في ذلك صدق عبارة الشاعر العربي ، وصحة عاطفته ، وعلو همته وكرامته ، فيقول تحت عنوان : "الشعر العربي" لا توجد شاعرية على وجه الأرض ، مثل شاعرية العرب في الخطاب المباشر والتعبير السليم عن المشاعر والعواطف ، ولا في تقدير الرجولة والشهامة والكرم ، ولا ينجذب الشاعر العربي إلى روعة الألوان ، وبهجة المناظر البراقة ، كما ينجذب ويلتفت إلى قيم الحياة والأخلاق المعنوية ، ويضرب إقبال لذلك مثلاً بقول الشاعر الحماسي : محمد بن عبد الله الأزدي ، حيث يقول :

نداء المنجد

لا أدفع ابن العم عشي على شفا

وإن بلغتني من أذاه الجنادع (١)

و لكن أواسيه وأنسى ذنوبه

لترجعه يوماً إلى الرواجع

وحسبك من ذلّ وسوء صنيعه

مناواة ذي القربى وإن قيل قاطع

وينهى إقبال تعليقه المذكور برأية حول شاعرية المتنبي ، فيقول :

"وأما المتنبي ، فإنه يعتبر استثناءً لذلك الوضع ، وعلى كل حال ، فإنه شاعر

(١) الجنادع في الأصل هوام الأرض ، وكناية عن ضروب المكاره ، وأنواع الأذى .

عربي بلسانه ولهجته فقط ، بينما هو شاعر فارسي بحت بروحه وفكره " .
[STRAY REFLECTION P81]

(ولا يخفى أن رأى إقبال هذا حول شعر المتنبي ليس مبنياً على دراسة حقة له ، بل إنه مشتمل على المبالغة ، وعدم الدقة في التحليل) .
ومن أمثلة استفادة إقبال من شعر امرئ القيس بيته في ديوان :
"جناح جبريل" (بال جبريل) ، حيث يقول : إن إيمان الرجل المؤمن وإيقانه بعقيدته الصافية في هذا العالم المعمور بأنواع الظنون ، والأوهام ، والمسحور بالشعاوز ، وزخارف الكلام ، مثل : قنديل ، سراج في زاوية راهب يضيئ في الليلة الظلماء بالصحراء ، وذلك تشبيهه استخدمه امرؤ القيس ضمن إحدى قصائده اللامية يمدح فيها جمال عشيقته ، فيقول :

تضيئ الظلام بالعشي كأنها

منارة ممسى راهب متبتل

وقد استعار "إقبال" بيتاً كاملاً من معلقة عمرو بن كلثوم ، وكونه شطراً أولاً لإحدى رباعياته في ديوان : "هدية الحجاز" (أرمغان حجاز) ، حين يقول :

صبنت الكأس عنا أم عمرو

وكان الكأس مجراها اليمين

(اكرابن است رسم دوستدارى

بديوار حرم زن جام ومينا)

والخطاب في هذه الرباعية موجه إلى الله عزوجل ، فيقول إقبال :
لماذا أيها الرب الكريم ! صرفت نظرتك عن المسلمين بينما أصبح أعداء الإسلام مترفين ومنعمين ، وإذا كان هذا من أسلوب الوفاء والكرم ، فالأفضل أن تكسر الكؤوس والقوارير ، وأن تضرب بها على جدار الحرم ، لأن ذلك أفضل من أن يستخدمها أعداء الإسلام ، ومن أمثلة تأثر إقبال

بشعر زهير بن أبي سلمى ، قوله في منظومة : "ماذا ينبغي أن نفعل يا أمم الشرق" (مثلوى) بس جه بايد كرد أي أقوام مشرق) موجهاً كلمته إلى الأمة العربية : أيها العرب ! إذا أردتم إنقاذ أنفسكم والحفاظ على ثرواتكم من مخالب الاستعمار ومخاطر استيلاء الغرب ، يجب عليكم إبعاد بعير الإنجليز من حياضكم ومياهكم وطرده من أراضيكم :

(أز فريب أو اكر خواهي أمان

اشترانش را ز حوض خود بران)

وفكرة هذا التعبير مستفادة من بيت زهير بن أبي سلمى في معلقته

الشهيرة .

ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه

يهدم ، ومن لا يظلم الناس يظلم

ويتضح مدى استلهاهم إقبال من شخصية أبي العلاء المعري ، وشعره وفنه من خلال المقارنة بين ديوان إقبال رسالة الخلود (جاويد نامه) ، وبين رسالة الغفران للمعري ، فإن إقبال ليس متساهلاً بالنسبة لغير المسلمين في معظم دواوينه ومؤلفاته إلا أنه متسامح بهم ، ومتساهل لهم في رسالة الخلود خلال رحلته الخيالية الفكرية إلى الكواكب والسموات ، ويرجع سبب ذلك في أغلب الظن والاعتقاد إلى تأثيره بأسلوب المعري المتسامح في رسالة الغفران إلا أن أسلوب المعري ، قد تحول في بعض الأحيان إلى سخرية ومهزلة على خلاف منهج إقبال ، فإنه واقعي وجدي يمتاز بالعقلية الرزينة ، والمنطقية التحليلية .

ويجل إقبال فكرة المعري ضمن إحدى المقطوعات في ديوان "جناح جبريل" حين يقول تحت عنوان : "أبو العلاء المعري" إن المعري لم يكن يحب تناول اللحوم مطلقاً ، بل كان يعيش على تناول الخضروات والفواكه ، وذات يوم أهدى له أحد أصدقائه دراجاً مشوياً لتناوله ، فاندesh المعري بتلك الهدية الغريبة ، وبدأ يخاطب الدراج المشوى قائلاً : أيها الطائر

المسكين ! لماذا أصبحت هكذا ذبيحاً مشوياً ؟ فإن جريمته الوحيدة ، أنك طائر مسكين ، ولست صقراً قوياً ، فلو كنت صقراً وشاهيناً لما أمكن استخدامك مأكولاً ، فإن قاضي القضاء والقدر ، قد أعلن في الأزل ، وقدّر للأبد بأن الموت المفاجئ ، والفناء المباغت عاقبة الضعفاء والمساكين ، وذلك جزاء ثابت لجريمة الضعف والمسكنة .

وأفضل أن أخص بالذكر في الأخير منظومتين رائعتين لإقبال ، وقد تم تسجيلهما ، وانبعث تشكيلهما خارج الهند ، أولاهما منظومة الشوق والحنين ، وسجلت معظم أبياتها في فلسطين حين قام إقبال بزيارة القدس في عام ١٩٣١م للمشاركة في فعاليات المؤتمر الإسلامي المنعقد فيها آنذاك ، والأخرى منظومة "جامع قرطبة" التي استلهمها إقبال بأجواء ذلك الجامع الكبير التاريخي الأثري ، وتعتبر من أعظم إنجازات الأدب الشرقي والأردني ، فقد استخدم إقبال فيهما أسلوباً نادراً غريباً مشتملاً على تعابير ومصطلحات حياة عربية أصيلة حتى يجعل القارئ يتنفس في أجواء القرون الماضية الجميلة ويتذكر تاريخ الأجداد العظام ثم يتنفس في أجواء القرون الماضية الجميلة ، ويتذكر تاريخ الأجداد العظام ، ثم يتنفس في العصر الحالي الحالي من قيم الأخلاق الروحية النبيلة ، والذي تسوده المادية الجامحة والرفاهية الزائفة ، فيكثر من استخدام كلمات عربية أصيلة ، فيقول في مطلع منظومة "الشوق والحنين" : إن مشاهدة منظر الصباح البهيج في الصحراء تبعث الحياة ، والروح في القلوب والأبصار ، فكأن ينبوع الشمس يسيل أنهار الأضواء والأنوار ، فيمكن في مثل هذه البيئة أن نشاهد الجمال الأزلي ، وكأن حقيقة الوجود مكشوفة أمام القلوب الواعية ، ولو لا تراها العيون الظاهرة العادية ، وقد مرت السحب ليلاً عبر أجواء هذه الصحراء ، ومضت عليها بعد العطاء والأمطار إلا أنها تركت غميمات حمراء وزرقاء ، واصطبغت قمة جبل "اضم" بلون طيالة الأساقف ، فلا

د/خليل عبد الرحمن راز

يوجد غبار في الفضاء ، وأصبحت أوراق النخيل مفسولة ، ورمال ضواحي مدينة كاظمة ناعمة ، مثل : الحرير ، ونشاهد النيران خامدة ، وجبال الخيام ، وأطنابها المكسورة مرمية مطروحة هنا وهناك ، ولا ندري كم قافلة اجتازت هذه الصحراء القاحلة ، ويشرح الأستاذ أبو الحسن الندوي رحمه الله ، الجزء المذكور للمنظومة بتعبيره ، فيقول : هذا وقد تهيأ الجو ، وتوفرت الأسباب لإمتاع الشاعر العظيم ، وإثارة قريحته ، فقد غطت الجو سحائب ذات الألوان ، واكتست جبال فلسطين بطيلسان جميل ، ، زاهي اللون ، وهب النسيم عليلاً بليلاً ، وهفت أوراق النخيل مصقولة مفسولة بأمطار الليل ، وأصبحت الرمال في نعومتها وصفائها حريراً ، ورأى الشاعر العظيم آثار نيران انطفأت قريباً وأثاني منثورة هنا وهناك ، ويقايا من خيام وأخبية ضربت في هذه الصحراء بالأمس القريب تخبر بالقوافل التي أقامت ثم ظعننت .

(روائع إقبال : ص ١٣٠-١٣١)

ولقد كانت في فكرة إقبال حين قرض هذه المقطوعة أبيات من قصيدة البردة للبوصيري ، التي استخدم البوصيري فيها جبل "اضم" (الواقع بنواحي المدينة المنورة) ، وكاظمة (مصيف وموضع للتنزه في ضواحي البصرة) ، حين أنشد :

أم هبت الريح من تلقاء كاظمة

أو أومض البرق في الظلماء من اضم

وأما القصيدة الأخرى الخالدة "جامع قرطبة" ، فقد شرح إقبال فيها فلسفة الحياة والوجود ، وقال : إن جميع الموجودات والكائنات متعرضة للفناء والزوال ، ما عدا نقوش وآثار تركها أهل الإيمان واليقين ، فهم خالدون ، وآثارهم خالدة مثلهم ، ومن آثار أولئك الخالدين العظام هذا البناء الشامخ الذي مثله مثل المؤمن تماماً ، ثم يبكي إقبال على هزيمة المسلمين في "أسبانيا" ، وانقراض آثارهم فيها تدريجياً ، فتذكر تاريخهم

وحضارتهم ، ثم بشر بعودة المجد الإسلامي في بلاد الغرب ، ونهضة المسلمين الشاملة من جديد ، وأكثر إقبال في المنظومة المذكورة من استخدام كلمات عربية خالصة ، مثل الصهباء والرحيق ، وكأس الكرام والصيرفي ، والمضراب ، وفقية الحرم ، وابن السبيل ، والعيار ، والمعجزة والحياة ، والممات ، والله ولا إله (إلا الله) ، والجلال والجمال ، والكليم والخليل ، وجبريل والنخيل ، والخلق العظيم ، والصدق واليقين ، والدين المبين ، والسحاب والبحر ، والشفق والآفاق ، ونفحة اليمن ، والشرق والغرب ، وعين الغزال ، وقبله أهل الفن ، والحجاز ، والأندلس ، والسلطنة والسلطنة ، وروح الأمم ، والحريير والدهقان وغيرها .

وفي تلك المنظومة استعار إقبال من الشعر العربي أسلوب خطاب المباني وذكر آثارها وأطلالها على غرار شعراء العرب الجاهليين ، مثل مطلع امرئ القيس في معلقته :

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل

بسقط اللوى بين الدخول فحومل

و كمطلع معلقة طرفة بن العبد :

لخولة أطلال ببرقة ثممد

تلوح كباني الوشم في ظاهر اليد

ومطلع زهير بن أبي سلمى أمن أم أوفى دمنة لم تكلم بحومانة الدراج ، فالمتنم إلى غير ذلك من الأبيات ، ولكن إقبال لم يكتف بالبكاء على الآثار والأطلال فقط ، بل إنه تقدم وتجاوز إلى شرح فلسفة الحياة والموت ، وسر البقاء والبقاء للآثار ، والفنون والأعمال ؛ فقد ألقى نظرة عميقة على الغابر ، والحاضر للأجيال البشرية محلاً للأحداث والوقائع ، حتى تنبأ

د. خليل عبد الرحمن راز

بعودة الحياة والمجد إلى المسلمين من جديد ، ومدح الدكتور عبد الوهاب عزام ، هذه المنظومة ، وقد ترجمها إلى العربية شعراً ، وقال : إن بيان فلسفة المجد والحضارة ، وذكر المباني ، والآثار مع تذكر سيرة مؤسسها وعظمة مشييدها أسلوب بديع بالنسبة للعرب لم يأنسه أدباؤنا وشعراؤنا ، فيقول الدكتور عزام : ويرى القارئ طريقة إقبال الحكيم الشاعر المؤمن في الوصف ، فهو يلقي على الحسيات نظرة تنفذها إلى ما وراءها من مكان ، وما استكن فيها من أسرار ، فيستغرق في فكره ووجدانه ، نظر إلى مسجد قرطبة ، فلم يصف بناءه ، ولكن وصف الإيمان والعشق والجهاد وغيرها من المعاني التي حملها العرب المسلمون في أرجاء العالم ، وأقامت هذا البناء الخالد ، وهذه الطريقة في الوصف لم يألها شعراؤنا ، وكثير من المعاني غير معتاد في أدبنا .

وأما ما يتعلق بتأثير القرآن والسنة في شعر إقبال ، فذلك موضوع ضخم يحتاج إلى دراسة تحليلية مفصلة ، فإن معظم أفكاره ، ولا سيما الأفكار التي تخص بفلسفته للذاتية مستفادة من تعاليم الكتاب والسنة إلى جانب ما استفاد في صياغتها من أفكار الشيخ جلال الدين الرومي ، والشيخ عبدالكريم الجيلي ، وبعض فلاسفة الغرب ، مثل نيتشه ، وفيشته ، وبرجسون ، وكانط وغيرهم ، وقد أثار إقبال حين استفسره بعض أصدقائه عن استفادته بالقرآن في فلسفته للذاتية إلى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ إلى الله مرجعكم جميعاً * فينبئكم بما كنتم تعملون ﴿ (المائدة/١٠٥) ، وإلى قوله تعالى : ﴿ إِنْ لَمْ يَنْصُرُوا اللَّهَ فَهُوَ الْعَاقِبُونَ ﴾ . (الرعد/١٧)

إقبال في مسجد قرطبة للدكتور عزام : ص ١٤١

ومجمل القول إن إقبال كان مواظباً على تلاوة ما كان يتيسر له من كتاب الله الكريم كل صباح متعمقاً في دراسة مضمونه وأسلوبه ، وقد بالغ

في الإشارة والتلميح إلى الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ضمن شعره والاستشهاد بها فيه لا يوجد لها نظير عند غيره من الشعراء إلا بعضهم من فحول الشعراء المفكرين الإسلاميين ، مثل الشيخ جلال الدين الرومي ، وأبي العلاء المعري مع أن آخر الذكر يستشهد بها في بعض الأحيان في استخدام اللغة أو في سياق غير مراد بها للجرح ، والقده فيها مثل قوله :

حمراء ساطعة الذوائب في الدجى

ترمى بكل شرارة كطرف

يقول أبو القاسم الزمخشري معلقاً على بيت أبي العلاء المذكور شبه أبو العلاء الشرارة بالطراف ، وهو بيت الأدم في العظم والحمرة ، وكأنه قصد أن يزيد على تشبيه القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿إنها ترمى بشرر كالقصر﴾ (كأنه جمالات صفر) ، ويشرح الزمخشري بأن تشبيه القرآن بأبلغ من تشبيه أبي العلاء الأعمى . [سورة الرسائل في الكشاف للزمخشري] ومن رأى إقبال حول تعاليم القرآن الحكيم بأنها على عكس تعاليم الفلاسفة اليونانيين ، وتعاليم الديانات ، والمذاهب القائلة بوحدة الوجود ، ويتضح مدى تأثيره في شعره بكتاب الله من أنه أشار ولمح إلى الآيات القرآنية في ديوان الأسرار والرموز فقط في أكثر من ستين موضعاً بالإضافة إلى مئات الآيات والأحاديث المشار إليها ضمن دواوينه ورسائله ومؤلفاته الأخرى في الفارسية والأردية والإنجليزية .

وعلى كل حال ، فإن من أهم ميزات شعر إقبال استفادته بالشعر والأدب العربي الأصيل في الأسلوب ، والمعنى واستلهامه من تصور البيئة التي نشأت فيها شاعرية العرب القدماء حتى إن العديد من منظوماته وأناشيده الرائعة تذهب بالقارئ في تخيله إلى تلك البيئة لتذكره بأيام الحضارة العربية القديمة ، وبتاريخ المجد الإسلامي الأصيل .